تصميم : سمر رضا

أفتتح توفيق خطبة الجمعة بالآية الكريمة

وَالفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ

وتابع:

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ

يتحدث عن سنن و فضل عشر ذي الحجة من الذكر وفعل الخير والإكثار من قول

لا اله الا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير

وفضل صيامهم و يوم عرفة وعن الصدقات ويكمل حديثه عن شعائر الحج ويختم قوله بالدعاء

اللهُمَّ اجعلها ليالِ رحمة وغيث وقبول وإجابة، اجعلها بداية خير وبشرى، يارب اعنّا بها على طاعتك و بَلِّغنَآ يَوْمْ عَرَفَةَ مجبورين مُطمَئنِينْ يَارَبْ "

ثم دعا أن يآذن الله لهم بالحج بالعام القادم وبعد الصلاة جلس يسبح الله ونظر على يمينه وجد جاره سالم يقرأ بكتاب الله وعلى جانبه جاره وشقيقه حسين يسبح بالمسبحة ، أنهيا ما يفعلوه وذهب كل منهما بدون أن ينظرا لبعضهما فنهض توفيق وهو يستغفر الله ، دخل البناية وكل منهما يفتح منزله فيسكنا بنفس البناية والطابق المكون من ثلاث مساكن ،أغلقا وهما يستأذنا من توفيق وكأنهما لا يرا بعض ،دخل منزله واستقبلته زوجته أبية وابنائه ببسمة جلس وهم يضعوا الطعام على المائدة فلمحت أبية شروده فقالت وهي تضع الصحن:بِمَ تفكر؟.

ذهبت له وهو على وضعه فنادته وأنتبه لها قائلًا:

-لا يعجبني حال تفكك الأخوة يا أبية

الأشقاء مَلاذ بعضهم.

تفهمت على من يقصد وهي تقول:الحاجة إستبرق متوجعة على ما حدث لكن ماذا نفعل هم قالوها كلمة

"لم نعد أشقاء" .

معترضًا نافيًا لما يسمع وقال:لا يوجد شيئا أسمه ماذا نفعل.. بل يجب أن نفعل أن نحارب ونسعى بألا توجد قطيعة رحم.

نادوهما ابناءهم فقالت وهما يتقدما:ونحن نشرب الشاي نفكر ماذا نفعل لنعيد شمل عائلة تفتت بكلمة.

***

وضعت الجدة إستبرق الشاي وهي تجلس بغرفتها لا تتحمل خروج الشرفة لربما ترى ابنها سالم وترى فيه خيبة أمالها ، عبارة قالها كل كلمة بها مزقت قلبها

"أمي وزوجتي لا يتفقا خذها معكَ"

سمعته ورأت حسين ابنها الأصغر ينفعل على شقيقة سالم فضربه والآخر ظل يطلق عليه الكلمات كالرصاص

" تخرج أمي من بيتها من آجل والدة زوجتك ، أنت رجل عديم الشخصية ، أنت لستَ رجلًا من الأساس.

كلما يضربه يقول أكثر وما زادها همًا هو حين قالت سهام والدة رغدة زوجة ابنها التي فتت قلبها عينًا بعين

"أنا هنا أدفع ثمن طعامي وشرابي لكنك تكلفيهم طعام وشراب وعلاج هل تظني أن معاشكِ يكفى؟ حتى لا يكفى ثمن العلاج فكوني خفيفة وكفاكِ ثقلًا عليهم"

فما أن سمعت أميمة زوجة حسين لم تتحمل وقالت لها:

-وأنت ما شأنكِ لِمَ تتدخلي بين الأم وأبناءها كل كلامك هذا يدل على إنك امرأة لم ترى تربية.

فلم تصمت رغدة ونعتتها:

-ضعي لسانك بفمك ولا تسمعينا صوتك.

-إذا كانت الأم هكذا فكيف ستكون الابنة ؟.

-أنا سأريكِ كيف ستكون الابنة.

ضربتها وهي تدافع عن نفسها وكل من أزواجهما وجيرانهما يبعدوهما ثم أنتبه الجميع على صرخة أبية وهي تهرول عندما أغشى عليها

جففت إستبرق عيناها وقلبها يئن وتقول بهمس:

-أعوذ بالله من قسوة الكلمة التي تترك أثرها بالقلب.

دخلت أُميمة وقالت لها مبتسمة:لِمَ لم تتناولي جيدًا يا أمي.

-تناولت على قدر شهيتي و أحب أن أكون خفيفة.

-أنتِ دومًا هكذا.

دعت لها فهي تعاملها كوالدتها التي أحسنت تربيتها طرق حسين الباب ودلف وهو يقول:ما رأيكم لنخرج بالمساء.

-أخرجوا أنتم يا حبيبي أنا لا أريد.

-لن نخرج لو لم تأتِ.

-يا ابني الله يرضي عليك لا تهتم بي أفعلوا ما تريده فلن أزيدكم تكلفة.

-أمي نحن بفضل الله وبركاته وضعنا بخير ،كثر خير الله وطاب ،فلا تقولي هذا أبدًا يا حبيبتي ،بعد العشاء نذهب للخارج فأختاروا مع الأولاد إلى أين نذهب.

وقبلها وهي تدعو له وخرجت أُميمة معه لتتركها على راحتها ،جلست وهي تفتح المصحف ظلت ترتل ليسكن قلبها الهدوء.

***

وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}.[٤]

يرتل توفيق الآية القرآنية وتابع وهو يتحدث مع زوجته:

-نحن لا نتدخل يا أبية بل نسعى بالصلح ألا يوجد أفضل من هذا.

-أنا فقط أخشي عليك من لسان سهام هذه كل كلمة تقولها كالأسهم تغرس بالقلب.

-أنا أسعى بالخير بإذن الله لن أضر.

نوى أن يجتمع بحسين وسالم داعيًا الله أن ينجح ويتوفق بالصلح بينهم.

***

حزين كلما يرى غرفة والدته تسكنها حماته التي تسببت بقطيعة عائلته له

بينه وبين نفسه لا يلوم شقيقة الأصغر على ما قال لكنه كان يجب أن يسكته فضربه ،شكى لزوجته من مصاريف والدته الزائدة وظنها ستكون محافظة على سره فكشفته بدون تعمد، عام مر عليهم حدث به الكثير من الأحداث حتى فصل من عمله ويتجدد محضر العمل لأن يظهر حقيقة الأمر فمن كثرة ضغوطاته لم ينتبه لعهدته وتهم بها وهو برىء من هذا ،لم يعد بعمله وحماته هي من تصرف على البيت ويتحمل قولها السام ويتغافل ما يصيبه بالحزن هو عدم رؤية والدته فلا عين له أن يراها بعد خروجها من بيته مهانه باكية وتدهورت علاقته بكل من حوله ويخبر نفسه بقول

"أغضبت أمي فغضب عليّ كل شيء "

يتمنى لو يلمحها أن تأت عينه بعيناها أن يمحي أثر ما قال وسمعته أن تنسي كل هذا .. لكنه يدرك أن

الأثر لا يزول سواء كان خيرًا أو شرًا وهو أثره بقلبها سيء.

دخلت رغدة له وقالت وهي تجلس بجانبه:لِمَ لم تجلس معًا.

-لا أريد .. والدتكِ كلما ترى وجهي تسمعني ما لا أطيق..ما عُدت أطيق.

بخجل قالت:لا يوم من أيام والدتكَ.. الحق يقال كانت هادئة مسالمة.

-من فضلكِ أتركيني لحالي.

قالها بحزن وآسي وهي متفهمة عليه قائلة:بالله ما كنت أقصد لكن هذا ما حدث.

خرجت مستاءة فذلة لسان صنعت قطيعة تلاعبت والدتها بها حتى تؤجر منزلها وتعيش معهم أوهمتها بأن صحتها مريضة وتريد خدمتها فرغمًا عنها ما عادت تتحمل وجود حماتها التي لم تقول إلا النصح فلم تعد تقبله وكانت بداية الخصومة

سمع سهام تقول لرغدة:

-أنتم لا تشبعون، ما كل هذه المصاريف لولا أن أجرت منزلي لذهبت لكني مجبرة.

وضع الوسادة على رأسه لكن صوتها عال:

بعد الآن سيتغير النظام لن نجلب اللحم والدواجن والأسماك بل سنعيش على الجبن والفول هذا ما باستطاعتي ومن لم يعجبه ليبحث عن عمل فلا أعول رجال هل زوجتكِ لأصرف عليكم.

-كما تشائي يا أمي.

قالتها رغدة بإنكسار فهي أيضًا ما كانت تظن بأن وجود والدتها معهم سيسبب لها الكثير من المشاكل لكنها تخشى الحديث معها فتسمعها مُر الكلام فقالت سهام ساخرة:

- لم يعجبكِ قولي أنتِ يجب أن تشكريني فلولا وجودي لما رحمتي من وجود حماتك الثقيلة.

خشت أن تدافع عنها وتقول ما بقلبها فحين كانت ببيتهم ما كانت تتدخل فيما لا يعنيها كانت تحرص على دوام العلاقات لا زوالها فسرعان ما نهض وخرج وهو يرى زوجته لا تستطيع الحديث عيناها بالأرض فقال بصوت جهوري:

-كفاكِ.. ما أن حللتِ غابت البركة عن هذا البيت بل عن حياتي كلها.

تترجاه زوجته بأن يخفض صوته فأرتفع صوت سهام وهي تقول:

-بركة !وهل تظن أن والدتكِ بركة.

-كفاكِ كفاكِ كفاكِ وإياكِ أن تقولي كلمة واحدة عن أمي

إياكِ وكفاكِ لن أسمح لكِ

كفاكِ كفاكِ كفاكِ جلبتي الخراب ونزعتي البركة

كفاكِ وإياكِ.

تسمع إستبرق ما يحدث وهي بغرفتها وتبكي ولا تستطيع أن تظل بمكانها فسرعان ما خرجت من غرفتها ورأت حسين يخرج الآخر من غرفته على حدة الصوت وتسمع أميمة وتستغفر الله فقالت إستبرق برغم ما بها من حزن:

-حسين أذهب فورًا لشقيقك يتشاجر مع سهام لن ترحمه بكلماتها.

سمعوا صوت سهام بالخارج وهي تطرق بابهم وتقول:

-يا بركة أفتحي لأري ماذا سيفعل بي زوج ابنتي افتحي وإلا لن يسلم سالم من لساني.

سرعان ما فتحت الباب ويتابعها حسين وزوجته وحين فتحت قالت لها:

-كفاكِ تسمعي الناس بنا هذا البيت لم يسمع أحد فيه صوتنا أبدًا كفاكِ.

-أمي أنا أسف، أمي سامحيني.

تبكي في خروج توفيق وأبية بعدما أستعما لكل شيء من قولهم العال لا تنصتًا فقال:

-يا أحباب هلّم بنا للداخل لنتحدث.

-أنصتوا له سيخطب بنا ويعطينا درس وحكم وعبر.

قالتها سهام وقبل أن تجيب أبية قال مسامحًا كأنه لم يسمع سوء قولها وسخريتها:

-هيا يا أبية أستضيفي جيرانكِ ببيتنا المتواضع.

ينظر حسين لسالم بعتاب والآخر يطالعه بخجل وتبكي رغدة وأميمة مشفقة على ما يحدث وإستبرق تنظر بكل إتجاة تخجل من الذي يحدث لكن صوت سالم به ندم فأوجعها الندم الذي بصوته وسعيدة لإفاقته ،دلفوا منزل

توفيق وأصروا على حضور سهام معهم مرحبين بها ومتفاجئة من ابتسامتهم رغم كلماتها الجارحة لهم.

***

لا تأتِ العين بالعين خجلًا وألمًا

لا تأتِ حتى لا تمر الخيبات والإنكسارات أمامهم فتعيد عليهم أثر الصدمة والفجيعة

يتحدث توفيق و كل العيون مصوبة عليه وتتحدث أبية والنظرات بينهما لكن سهام بين الحين والآخر تتأفف ثم تهمس بقول لم يسمعوا أحد لكنهم موقنين سوءه فلم يبالوا حتى لا يزيدهم جرحًا

أعطتهم أبية التحية وتطبطب على الحاجة إستبرق التي نظرت لسالم ثم للمنزل فبعد عام جمعهم سقف بيت ولا تعلم هل نهاية الجلسة نفور وهجر أم تصالح وعفو، فتابع توفيق:

-الأمس رحل لا يعود واليوم مصير الأمس والغد غيب لا نعلمه وطالما ما زالنا نتنفس يعنى لا زال لدينا فرصة لكل شيء نؤجر عليه .. المقت صفة بغيضة والمشاحنات

تتزايد وتتراكم لو لم نكشف ما بداخلنا من أذي تعرضنا له لكن بلا تجريح .. جرح الكلمة لا يشفى فإن تكلمنا فلنحسن القول حتى لا نكسر نفسًا.

تمتمت سهام بنظرات ساخرة فقال سالم بدون النظر لأحد:

-نحن من نقمنا فرحلت عنا البركة وحل الكمد.

-توجد فرص بعد.

قالتها أبية ببشاشة وجه وتابعت والجميع صامتين:

-نحن من نصعب الأمر ونضخمه رغم أننا بكلمة واحدة نقولها بحق وصدق بدون نية سيئة ولا كسب مصالح

كلمة واحدة تقال لمن كسرناه تميط الأذى من القلب

"أسف"

ما أسهل حروفها وما أصعب نطقها عندما يدلف الشيطان بوساوسه للمرء فيجعلها مستحيلة

ليصيبه بالتكبر والكبرياء فينتهى الأمر بقطيعة وهذا ما يسعده.

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووساوسه.

قالوها معًا بصوت واحد وكان الحديث الأول المشترك بينهم منذ وقتًا كبيرًا.

تبسم توفيق فقال حسين:

-وهل آسف تقبل لو قالت لمن جرحناه؟ هل ينساه؟.

وجاءت عينه بعين سالم الذي نظر له الآخر فقال توفيق:

-الجرح يضمد حتى لو بقت ندبة ستكون بلا شعور لو حقًا تم الصلح والمسامحة.

-ومن لم يقبل الأعتذار الآن ربما يقبل ولو بعد حين.

قالتها أبية مستبشرة تعطِ أمل وتابع سالم:أنا من بدأت بالأذي.

وقف ليقترب نحو إستبرق التي تشعر بأنها تختنق من كل الذي يحدث وتابع:

-كنت أريد أن ألمح ظلكِ لكني أيضًا كنت أقول من الأفضل ألا يحدث حتى لا تذكرها بخيبتها فيكَ.

إمتلأت عيناها بالبكاء ونظر لسهام التي تتابع قولهم بالبسمة والنظرات الساخرة:

-ضل قلبي عندما رحلتِ وإنحرف طريقي.

الآخر يحاول كبح دموعه فقال حسين:

-ما كنت أتمنى أن يحدث هذا .. أنا أسف لو تقبلها.

يجفف سالم دموعه وقال:

- لا تُلام يا أخي ففعلي قبيح لا يغتفر.

يسعد توفيق بتلاومهم ويتضح بأن نهاية العتاب صلح بصوت كسير قالت إستبرق:

-الله غفور بعباده.

وتابعت وعقدت سهام حاجبيها ورغدة تنظر لها والجميع:

-سأكون كاذبة لو قلت أنني أم والأم لا تحزن

لا يتحكم المرء بوجعه أنا أم وقلبي توجع

لكني قلت:

"الله يصلح حالك ويهديك "

التحكم بالكلمات التي ينطقها اللسان رغم أثر الفجيعة غير التحكم بالشعور المميت

أنا قلبي تفتت لكن يدعو لكَ لا عليكَ

هذا قلب أم هذا قلب يحب مهما أشتد العقوق

لكني والله ما كنت أتمنى أن أرى كل هذا

أن يضرب الأخ أخاه

أن ينظروا الناس علينا من كل حدب وصوب

أن يقولوا هذا البيت به قطيعة.

بكت فهرولا عليها أولادها كلً منهما يقبلا يداها ورأسها معتذرين لها على ما فعلا بها ونظرت أميمة لرغدة التي يظهر عليها بأنها تريد أخبارها شيئًا ونهضت سهام قائلة:

-أصبحت أنا السيئة بينكم.

-يا أمي أرجوكِ.

قالتها رغدة وتابعت:

-نحن من بدأنا بالأذي ونحن بغاية الأسف.

-لا تضمنيني بقولكِ من لم يعجبه لا يحدثني ولمن يريد الحديث معي فليتأدب

في حقيقة الأمر خطبتكم وأحاديثكم لم تروق لي ولا تهمني لكن ليعلم الجميع مع من يتحدث ومن الأفضل ألا نتحدث.

ثم غادرتهم فنهضت رغدة وقالت بخجل:أنا أعتذر منكِ يا حماتي على أي إساءة بدرت مني و أتمنى أن تسامحيني.

ثم نظرت لأميمة وتابعت بحرج:هل ممكن أن ننسى ما حدث؟.

-الأمس رحل ونحن باليوم.

قالتها مبتسمة فنهضتا معًا وذهبتا وهي تجفف دموعها بفرحة وسمعوا صياح سهام فقالت أبية:

-لين القول رزق لا يناله الجميع.

-أمي سامحتيني؟.

-تسامحا أولًا ثم حين أرى بيتنا عادت به الآلفة ستعرفا بأن قلبي لم يغضب أبدًا.

ينظر توفيق لأبية عندما عانق حسين شقيقة معتذرًا له ويطبطب عليه سالم يطلب منه أن يسامحه على ضربه له وكلٌ منهما يطلب السماح من الآخر ومن والدتهما فقال توفيق:

-سبحان الله العظيم وبحمده .. اليوم كانت لدي نية لجمعكم ونصلح ما بينكم فالحمد لله.

-على النية تؤجر بإذن الله.

قالتها إستبرق وتابعت أبية:

-ما أجمل الصلح وما أبشع الخصومة.

وتابع سالم وهو بجانب والدته وشقيقه:

-غدًا لدي يوم هام بالعمل إما عودة أو فصل نهائي، أدعو لي وسامحونني.

ثم نهض يقبل يدها ورأسها وقال:

-البيت بيتكِ ونحن ضيوفكِ.

ثم غادر ببكاءه فنهض خلفه حسين يضمه ونهضت قائلة لتوفيق وأبية:

-جعل الله فيكم الخير دائمًا.

أوصلتها أبية وهي تقبلها سعيدة بجمع الشمل

فهي أم وترى تسامح أم مثلها جاء لها ابنها طالبًا العفو فتسامحت

أغلقت الباب وهي تنظر لتوفيق وقالت:

-عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ.

حمد الله وتابع:

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

لم يكون التصالح الأول الذي أشتركا فيه بل من له قطيعة يطرق بابهم وهما داعين الله دومًا أن يستخدمهم ولا يستبدلهم.

***

تم تبرأته من الظلم الذي تهم به وكل ما فاته من عمل أخذه بالضعف لكن على كل شهر نصف المرتب حمد الله كثيرًا على براءته وعلى الرزق الذي ناله فقد عاد لعمله من جديد وكانت أول مشترياته قماش الحرير لوالدته كما تحب وجلب حلوى لزيارته الأولى لهم بعد الخصومة قبلها وقال:

-عُدت للعمل بفضل الله.

-مبارك عليكَ يا ابني ..من يتقى الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

جاءت أُميمة بالتحية وقالت:

-رغدة كانت هنا وفطرنا معًا.

-أعلم .. وبالغد نفطر معًا بإذن الله ..ذهبت حماتي لبيت ابنها وستعود بعد العيد.

وعاد يكرر طلبه ورجاءه لوالدته بأن تعود لبيتها فقالت:

-هنا وهناك بيتي فلا يهم أين أكون لكن يهمني أن نكون بخير.

طلب منه حسين بقول لين ألا يزيد فكف وتابع حسين:

-نتسحر معًا والحج توفيق سيعطِ درسًا لنحضره معًا اليوم ونحن بجانب بعضنا لا متفرقين كالسابق.

فما كان هين أن يتعاملا كأنهما لا يعرفا بعضًا فحتى الغريب يلقوا عليه السلام لكن هما يهربا بعيناهما حتى زاد الخصام لكن زالت الغمة وعاد السرور سر القلوب.

***

«الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد

الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله وحده

صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إيَّاهُ، مُخْلِصِين له الدين ولو كره الكافرون

اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أنصار سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

يكبر توفيق وبجانبة الكثير من الأطفال من عائلات شتى ويقف سالم وحسين يدًا بيد مع أولادهم وهم يكبرون معًا وبالجانب الآخر تقف إستبرق وبجانبها أُميمة ورغدة يكبرون بصوت هامس ويهنئوا بعضهم والجميع ثم بعد الصلاة خرجوا وتوزع إستبرق على الأطفال ظرفًا به مبلغًا رمزيًا وكارت مزخرف به عبارة

"الكلمة الطيبة صدقة"

تزرع كلمة طيبة بقلوب الصغار لتنبت بداخلهم نقاء القول ربما لا ترى حصاده الآن لكنه سينتج ولو بعد حين.

تمت بحمد الله